مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 01 (2021) - ص 75-- 85

الأصول الدّلاليّة للإعجاز القرآني: دراسة تطبيقية في رسالة بيان إعجاز القرآن للخطّابي

The semantic origins of quranic miracality (an applied study in Alkhatabi's (388 h) statement letter on quranic miracality)

عائشة حمداوي
hamdaouiaicha13000@gmail.com
مخبر تحديث النّحو العربي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان /الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/30 تاريخ القبول: 2020/10/09 تاريخ النشر: 2021/01/15

ملخص البحث

لقد صنّفت في موضوع الإعجاز القرآني كتب عديدة، إلّا أنّ رسالة بيان إعجاز القرآن للخطّابي لها ثقل كبير بينها، ومازالت تزاحم هذه المصنّفاتِ قديمَها وحديثَها نظرا لعبقريّة مؤلّفها وفكره الرّائد، ويروم هذا البحث إبراز أهمّ الأصول الدّلاليّة التي أقام عليها الخطّابي عمود الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم، متوصّلا إلى أنّ أهمّها هي: الفروق الدّلاليّة، والفروق النّحويّة والنّظم القرآنيّ.

الكلمات المفتاحية: الخطّابي، الإعجاز، النّظم، اللفظ، المعنى.

ABSTRACT:

Many books have been written on quranic miracality. However, Alkhatabi's statement letter on quranic miracality has a significant importance and it still competes such categories be them old or recent thanks to the genius of the author and his leading thought. The present research seeks to highlight the most important semantic origins on which Alkhatabi has built the foundation of rhetoric miracality of the Holy Quran, concluding that the most important ones are semantic differences, grammatical differences and quranic composition.

Keywords: Alkhatabi, miracality, composition, word, meaning.

1. مقدمة:

يزخر تراثنا العربيّ بمصادر شتّى ألّفت حول القرآن الكريم وما يتميّز به عن غيره من الكتب، نذكر منها: معاني القرآن للفرّاء(207ه)، مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنّى(209ه)، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة(276ه)، ثمّ أصبح البحث في خصائص القرآن أكثر عمقا ودقّة، فاختصت كتب كاملة بموضوع إعجاز كتاب الله تعالى كإعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله المعتزلي(306ه)، النّكت في إعجاز القرآن للرّمّاني(386ه)، بيان إعجاز القرآن للخطّابي(388ه)، إعجاز القرآن للباقلّاني(403ه)، الرّسالة الشّافية لعبد القاهر الجرجاني(471ه)، وقد وقع الاختيار في هذا البحث على رسالة بيان إعجاز القرآن للخطّابي(388ه) لأنّ صاحبها تفرّد في طريقة شرحه لموضوع الإعجاز وتبيينه بلغة راقية، ومنهجيّة رائقة قلّ لها النّظير، فكانت بحقّ رسالة- رغم اتّسامها بالاختصار- ذات وزن علميّ كبير، ممّا جعلها معينا لا ينضب في موضوع الإعجاز القرآني، ولعلّ أهمّ إشكاليّة نحاول الإجابة عنها هي: ما هي الأصول الدّلاليّة للإعجاز القرآني عند الخطّابي؟ إذ أنّه لا يخفى على ذي لبّ أنّ وجوه الإعجاز متعدّدة قد يكون الخطّابي ذكرها كلّها، أو بعضها ورجّح وجها واحدا أو أكثر منها، كما يمكن أنّه لم يكتف بالذّكر والتّرجيح بل تعدّاه إلى تقليب تلك الوجوه، وإتباعها بالنّقد العلميّ الدّقيق، والتّعقيب على كلّ رأي تعقيبا مقنعا، وإبراز الأصول التي تقوم عليها تلك الوجوه حتّى خلص إلى بيان إعجاز القرآن، ويروم هذا المقال تتبّع الأصول الدّلاليّة التّي ذكرها الخطّابي في رسالته، ويسعى إلى إبرازها مشفوعة بالشّرح والتّحليل، مستندا في ذلك إلى المنهجين الوصفي والتّحليلي فهما الأنسب لمثل هذه الدّراسة، وقد تمّ نسج هذا المقال على النّوْلِ التّالي:

_ مقدّمات دلاليّة عامّة: وخصّصنا الحديث فيها حول أصل اللّغة وعلاقة اللّفظ والمعنى.

_ الأصول الدّلاليّة للإعجاز: وانبثقت من هذا العنوان عناوين فرعيّة هي: الفروق الدّلاليّة، والفروق النّحوية، والنّظم القرآني.

2. مقدّمات دلاليّة عامّة:

تربط علمَ الدّلالةِ وشائجُ وطيدة مع علوم شتّى، كما يعدّ مركز الثّقل بالنّسبة لسائر علوم اللّغة، ويرتبط مع موضوعنا: الإعجاز القرآنيّ ارتباطا وثيقا، حيث إنّ موضوع علم الدّلالة الرّئيس هو صلة اللّفظ بالمعنى _ إذ أنّ علم الدّلالة في أبسط تعريفاته هو: العلم الذي يعنى بعلاقة اللّفظ بالمعنى_[1] هذا الموضوع تحديدا هو الرّكن الرّكين في قضيّة الإعجاز القرآنيّ نفسِها، لأنّ مدار التّحدّي كان حول الإتيان بسورة أو آية من مثل القرآن الكريم، فكان العجز لذلك والإعجاز. إنّ القارئ لرسالة بيان إعجاز القرآن يلاحظ إيلاء الخطّابيّ أهميّة قصوى لموضوع الدّلالة، كما أنّه يلفي مواضيع

شغلت بال الدّلاليّين مبثوثة بين ثناياها، تطرّق إليها الخطّابي بالذّكر كلّما رأى السياق مناسبا لذلك، ويمكن جمعها وترتيبها كالتّالي:

2. 1 أصل اللّغة:

أو نشأة اللّغة، وهو موضوع مرتبط بعلوم اللّغة بما فيها علم الدّلالة حيث يستدعي طرح قضيّة أصل اللّغة قضايا أخرى بَعدها كصلة اللّغة بالفكر، وصلة اللّفظ بالمعنى، وقد تعدّدت الأقوال في أصل اللّغة، إلّا أن الخطّابي وافق رأي شيخه الإمام الشافعيّ في الرّسالة إذ قال: " لا يحيط باللّغة إلّا نبيّ "[2]، وهذا ما أورده في أكثر من مرّة، فهو القائل حينا: " وإنّما تعذّر على البشر الإتيانُ بمثله لأمور منها: أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللّغة العربيّة وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامُهم جميعَ الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكتمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النّظوم التي يكون بها ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصّلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله"[3] فالخطّابي ههنا يقول بأنْ لا أحد من البشر يستطيع الإحاطة باللّغة ألفاظا ومعاني ونظوما، وهو يربط هذه المسألة ربطا مباشرا بالإعجاز، وقال حينا آخر" إنّما قدّمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن، وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السّؤال وزعمنا أنّها أمور لا تجتمع لأحد من البشر، ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته"[4]، ويواصل الخطّابي التّوضيح في موضع آخر، مستشهدا بمن سبقه من القائلين بهذا الرّأي حيث قال: " وقد قال بعض العلماء في الأسماء اللّغويّة وهي نوع واحد من الأنواع الثّلاثة التي شرطنا أنّه لا يجوز أن يحيط بها كلِّها إلّا نبيّ"[5] فالملاحَظ أنّ موقف الخطّابي من هذا الموضوع ثابت وجليّ فلا يحيط باللّغة من البشر غير نبيّ مؤيّد بوحي الله تعالى.

2.2 علاقة اللّفظ والمعنى:

إنّ اللّفظ والمعنى قطب الرّحى في علم الدّلالة، وقد شكّلا معا ثنائيّة شغلت بال الدّارسين قديما وحديثا، ولم يعرض الخطّابي زوج اللّفظ والمعنى كغيره بأن ينتصر للفظ على حساب المعنى أو العكس، بل نجده ينتهج سبيلا خاصّا به حيث صنّف أنواع الألفاظ جاعلا منها: " البليغ الرّصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السّهل، ومنها الجائز الطّلق الرّسل"[6] وهذا لا يعني أن مرجع الإعجاز إلى اللّفظ وحده، بل يجمع الألفاظ والمعاني والنّظوم معا، وعليه فصلة اللّفظ والمعنى عند الخطّابي لا تقتصر على عدّهما زوجا يفضُل أحدهما على الآخر، وإنّما هما مترابطان يقول:" ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركّب الكلام دون ما يتضمّنه من ودائعه التي هي معانيه، وملابسه التي هي نظوم تأليفه"[7] ويقول في السياق ذاته: " وإنّما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثّلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم"[8] وعليه لا يمكن الاستغناء عن اللّفظ أو المعنى، أو إبخاس أحدهما حقّه لأنّ العلاقة الرّابطة بينهما هي علاقة تكامليّة يخدم بفضلها

كل عنصر العنصر الآخر، ليتمّ بفضل هذا التّضافر حصول البلاغة التي يقوم عليها الإعجاز القرآني. إلّا أنّنا إذا تتبّعنا هذه المسألة بدقّة في البيان نجد الخطّابي يقول: "ألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها"[9] فقد يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أنّه يناقض قوله السّابق، وينتصر للمعنى ويفضّله، لكن سرعان ما يجد الباحث ما يَشفي غليله العلمي في هذا الأمر عندما يقرأ قوله:" فأمّا المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشدّ لأنّها نتائج العقول وولائد الأفهام، وبنات الأفكار، وأمّا رسوم النّظم فالحاجة إلى الثّقافة والحذق فيها أكثر لأنّها لجام الألفاظ وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النّفس يتشكّل بها البيان"[10] في هذا القول يتأكّد الباحث بأنّ الخطّابي يثبت الصّلة المتينة بين اللّفظ والمعنى والنّظم، وأنّ كل واحد منها يكمّل الآخر، حيث يقرّ بأنّ اللّفظ والمعنى جزآن منفصلان، مخالفا بذلك القائلين بعلاقة الهُوهُويّة[11] بين اللّفظ والمعنى، فاللّفظ جزء والمعنى جزء من الكلّ وليس هُوَ هُوَ، إلّا أنّ التئامهما و النّظمَ يصنع الكلّ فيتشكّل البيان، وهذا الطّرح الرّائد يجعل الخطّابيّ يتميّز بنظرات عميقة، وفكر وقّاد، وسليقة لغويّة وهّاجة مكّنته من الغوص في مثل هذه الدّقائق والأسرار وسبر أغوارها. وبذكرنا لعلاقة اللّفظ والمعنى عند الخطّابي – وهو الخيط الذي تنتظم فيه مباحث علم الدّلالة عموما – سنَدلِف فيما يلي إلى موضوع الأصول الدّلاليّة التي يقوم عليها الإعجاز عنده.

3. الأصول الدّلاليّة للإعجاز:

استهلّ الخطّابي رسالته بوصف القول في الإعجاز القرآني قائلا:" قد أكثر النّاس الكلام في هذا الباب قديما وحديثا، وذهبوا فيه كلّ مذهب من القول، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رِي، وذلك لتعذّر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيّته"[12] فالبحث في موضوع الإعجاز القرآنيّ ليس كغيره من البحوث، لما يتميّز به من الكثرة، والامتداد الزّمنيّ، وتعدّد المذاهب، واختلاف الآراء ممّا يجعله مجالا علميّا ثريّا يحفل بالتّنوع، إضافة إلى اتّسامه بالعمق ممّا يتطلّب مؤونة وزادا علميّا غزيرا لطالبه. ليعرّج الخطّابيّ بعد ذلك إلى ذكر أوجه الإعجاز، والتعقيب على كلّ رأي مدعّما آراءه بالحجج الدّامغة، مطعّما مواقفه بالأدلّة الرّاجحة، مثل القول بالصّرفة[13]، والإعجاز الغيبيّ، والإعجاز البلاغي، وصولا إلى الإعجاز النّفسي.

وقد وقف الخطّابي مليّا عند الإعجاز البلاغيّ مبيّنا أنّ أكثر أهل النّظر من العلماء قالوا بهذا الوجه من الإعجاز لكنّهم "جروا في تسليم هذه الصّفة للقرآن على نوع من التّقليد وضرب من غلبة الظّنّ دون التّحقيق له وإحاطة العلم به، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصّ بها القرآن... قالوا إنّه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر... وإنّما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربا من المعرفة لا يمكن تحديده"[14] يقول سيّد قطب:" ... إنّه يشعر أنّ هناك عنصرا ما ينسكب في النّفس بمجرّد الاستماع لهذا القرآن يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها، أم المعنى

الكامن فيها، أهو الصّور والظّلال التي تشعّها، أهو الإيقاع القرآنيّ الخاصّ ... ذلك سرّ مودع في كلّ نصّ قرآنيّ"[15] فقد أخبرنا الخطّابي عن وجود علماء من أنصار الإعجاز البلاغيّ لم يحددّوا سببه، وما بيّنوا علّته، كما وجدنا من المحدثين من سار على النّهج نفسه، وأقرّ بصعوبة تحديد مصدر الإعجاز البلاغيّ، أمّا الخطّابي في بيانه بنظرته الفاحصة لم يقف عند حدود القول بالإعجاز البلاغي، لأنّ الاكتفاء بهذا " لا يقنع في مثل هذا العلم، ولا يَشفي من داء الجهل به، وإنّما هو إشكال أحيل به على إبهام"[16] فالقول بالإعجاز البلاغي في القرآن الكريم " أمر لابدّ له من سبب"[17]، ويمضي الخطّابيّ بعدما أثار إشكاليّة سبب الإعجاز البلاغيّ، مبيّنا هذا السبب وتلك العلّة يقول:" واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التّأليف مضمّنا أصحّ المعاني... ومعلوم أنّ الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتّى تنتظم وتتّسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرهم، فانقطع الخلق دونه، فعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله"[18]، ويواصل تقريب الصّورة وتجليتها أكثر فأكثر بأن جعل لهذا الإعجاز البلاغي عمودا يثبّته ويجعله عصيّا عن المجاراة والمحاكاة، يقول: " ثمّ اعلم أنّ عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصّفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إمّا تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[19] يمكن أن نفهم من هذا القول بالغِ الأهميّة أنّ مرجع الإعجاز اللّغوي - وهو المقصود بالإعجاز البلاغي - له عمود يرتكز عليه ولهذا العمود أصول ثابتة يقوم عليها بدوره، وهي إمّا أصول دلاليّة تختصّ بانتقاء الألفاظ المناسبة للمعاني المناسبة لها وفق أنسب النّظوم، والإخلال بأحد أجزاء الأصول الدّلاليّة يؤدّي إلى فساد الكلام، والذّهاب بالدّلالة. وإمّا أصول بلاغيّة _ بالمفهوم الحديث للبلاغة_ يؤدّي الإخلال بها إلى الذّهاب بالرّونق والعنصر الجماليّ حتّى وإن تمّ الإبقاء على الدّلالة.

وسنخصّص ما بقي من صفحات هذا المقال لإبراز الأصول الدّلاليّة لهذا الوجه من وجوه الإعجاز، وتجدر الإشارة إلى أنّ تسميتها " الأصولَ الدّلاليّةَ" دون المباحث الدّلاليّة مثلا، إنّما كان ممتوحا من رسالة الخطّابي فهو القائل بعدما عرضها: "فإذا عرفت هذه الأصولَ تبيّنت أنّ القوم إنّما كاعوا وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعّدهم منه"[20] وجليّ الفرق بين مصطلحيْ الأصول والمباحث، فربّما اختار الخطّابي " الأصول" بدل غيرها لما تحمله من شحنات دلاليّة عن الثّبات، والرّسوخ، والعمق والاستمراريّة معا. ولعلّ أبرز الأصول الدّلالية في رسالة بيان إعجاز القرآن هي: الفروق الدّلاليّة، والفروق النّحويّة، والنّظم القرآني، وهي ترتبط بعلاقة اللّفظ والمعنى التي أنِف الحديث عنها، وما ذكره الخطّابي من أصول غيرها يقوم عليها الإعجاز اللّغوي يمكن أن تخصّص له دراسات أخرى تلامس علم البلاغة المعروف، كالمعارضة والمقابلة والمباراة وغيرها[21].

1.3 الفروق الدّلاليّة:

تعدّ الفروق الدّلاليّة أصلا من أصول الإعجاز البلاغي عند الخطّابي، لا بل وأكثرها أهميّة حيث نجده أسهب في الحديث عنها نظرا لأهمّيّتها القصوى، وفي بداية حديثه يبيّن توجّهه بأنّه من أنصار الفروق ومنكري التّرادف[22] وهذا الأصل الدّلاليّ بالغ الأهميّة يقول:" ذلك أنّ في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني يحسب أكثر النّاس أنّها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب كالعلم والمعرفة، والحمد والشّكر، والبخل والشّحّ وكقولك: اقعد واجلس... لأنّ لكلّ لفظة منها خاصيّة تتميّز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها"[23]

ففي القرآن الكريم أصل دلاليّ مهم هو الفروق الدّلاليّة بين الكلمات حتّى إنّ تبديل كلمة مكان أخرى وإن كانتا تتقاسمان بعض المعاني العامّة إلّا أنّهما لا تتطابقان ويبقى الفرق الدّلاليّ قائما بينهما، يقول الرّافعي فلو" نزعت كلمة منه، أو أزيلت عن وجهها ثمّ أدير لسان العرب كلّه على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها لم يتهيّأ ذلك، ولا اتّسعت له اللّغة بكلمة واحدة"[24] وعليه فكلمات القرآن الكريم غير متساوية في الدّلالة فكلّ كلمة " تمتاز بجمال توقيعها في السّمع وباتّساقها الغريب مع المعنى، حتّى كأنّك تشمّ رائحة المعنى المطلوب.. ربّ معنى لا يستطيع الإنسان أن يعبّر عنه إلّا ببضع كلمات أو جمل، يعبّر عنه القرآن تعبيرا جميلا بكلمة واحدة لا أكثر"[25]، ويواصل الخطّابي في رسالة بيان إعجاز القرآن إظهار الفروق الدّلاليّة في عدّة آيات من القرآن الكريم، معقّبا على انتقادات المغرضين الذين لم يستوعبوا هذه الفروق فقابلوها بآرائهم النّاقدة القاصرة، داحضا آراءهم وأوهامهم بالحجج الدّامغة، فما لبث أن أفحمهم بالإجابات الكافية المقنعة المبيّنة لعظمة القرآن الكريم وجهل هؤلاء. فضرب أمثلة من كتاب الله العزيز لألفاظ تبدو في ظاهرها مترادفة، ومتساوية تفيد المعنى ذاته، لكن العكس هو الصّحيح حيث إنّ الفروق الدّلاليّة بينها هي أصل الإعجاز فيها، لأنّ كلّ لفظة جاءت في كلام الله تعالى إنّما هي معجزة في موضعها لما تحمله من أبعاد دلاليّة تشعّ على ما جاورها من ألفاظ وآيات وسور، فكان كل كتاب الله معجزا، وفرقانا، وروحا، ونورا ساطعا لا يضاهيه نور.

مثل لفظتيْ: الحمد والشّكر اللّتان قد تبدوان متساويتيْن لكن الفروق الدّلاليّة بينهما عديدة، فالحمد يكون ثناءً أي ابتداءً ولا يكون الشّكر إلا على الجزاء، ويكون الشّكر بالقول مثل الحمد ويكون بالعمل والفعل أيضا كقول الله تعالى: ﴿اِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾(سورة سبأ، الآية 13)[26]، كما أنّ الحمد يستعمل في الموقف المحبوب والمكروه معا في حين يقتصر الشكر على المحبوب فحسب. والفرق بين لفظتيْ الشّحّ والبخل هو أنّ الشّح يدلّ على أكل مال الغير ظلما وعدوانا، والبخل يقصد به

الحزازة التي يجدها الشّحيح في نفسه وقت البذل والعطاء. وليست تطابِق الصّفةُ النّعتَ لأنّ الصّفة أعمّ والنّعت أخصّ، وغالبا ما يطلق النّعت على ما يكون ثابتا غير قابل للتغيير نحو النّعت بالطّول والقصر، كما أنّ بين اقعد واجلس فروقا دلاليّة، فيقال: اقعد لمن كان قائما، واجلس لمن كان مضطجعا[27].

"وأمّا قوله سبحانه ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ (سورة ص، الآية 6)[28] وقول من زعم أنّه لو قيل بدله: امضوا وانطلقوا كان أبلغ، فليس الأمر على ما زعمه، بل المشي في هذا المحلّ أولى وأشبه بالمعنى، وذلك لأنّه إنّما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السّجيّة المعهودة في غير انزعاج منهم... وذلك أشبه بالثّبات والصّبر المأمور به في آخر الآية الكريمة ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.. وأمّا قولهم: امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس في قوله امشوا، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه"[29].

تلك أمثلة ساقها الخطّابي في رسالته لألفاظ من القرآن الكريم تبدو مترادفة لكنّها ليست كذلك، بل بينها فروق دلاليّة شتّى، أوردها غيره من علماء اللّغة وصنّفت فيها كتب كاملة تعرف بكتب الفَرْق، إلّا أنّ المهر عند الخطّابي هو ربطها بالإعجاز القرآني وجعلها القاعدة المتينة التي نصب عليها عمود البلاغة والإعجاز.

2.3 الفروق النّحويّة:

يختلف نحو اللّغة العربيّة عن غيره من أنحاء اللّغات الأخرى، ولعلّ أهم السّمات التي تميّزه الإعراب، وعنايته بالدّلالة فهو ليس مجرّد قواعد جافّة، بل يحمل دلالات تستدعي الدّقّة في استعمال الألفاظ والحنكة في انتقائها، وكما توجد بين الألفاظ فروق دلاليّة توجد فروق نحوية، فهناك أفعال تتعدّى باستعمال حروف إذا ما غُيّرت تغيّر المعنى، تقول: رغبت في الشيء أي أردته، ورغبت عن الشيء إذا تركته، فالفرق بين الجملتين واضح، ومردّه إلى الحرفين (في وعن) والمعنى الذي أكسبته (في) للكلام يخالف المعنى الثّاني لـ(عن)، وللفروق النحويّة أهميّة كبيرة في اللّغة العربيّة لأنّ تعدية فعل باستعمال في ليست تعديته باستعمال على، وبلى ليست هي نَعم، وليس المعرب كالمبني، ولا الفعل كالفاعل...والمعرفة بهذه الدّقائق النّحويّة ضرورة ملحّة، وبها يستقيم المعنى، إنّ الاستعمال القرآني للأفعال والأسماء والحروف يكتسي حلّة إعجازيّة خاصّة مراعيا الفروق اللّغوية جميعها، وكما عني الخطّابيّ في رسالته بالفروق الدّلاليّة بين الألفاظ، أولى عناية أيضا للفروق النّحويّة بينها، فالفروق

النّحوية أصل مهمّ من الأصول الدّلاليّة في القرآن الكريم، يقول الخطّابي إنّ بين بعض الحروف والأسماء والأفعال فروقا يحسبها بعض النّاس متساوية مثل: بلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن[30]...

ويورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم لإبراز هذه الفروق النّحويّة وصلتها بالدّلالة، وارتباط ذلك كلّه بالإعجاز، مثل (مِن وعن) اللّتان تفترقان في مواضع، فقولك: سمعت منه كلاما أي سمعته مباشرة من فمه دون وسيط، بخلاف سمعت عنه التي تدلّ على أن أحدهم أبلغك الكلام ولم تسمعه مباشرة. ومثال ذلك أيضا: عَشَا إلى النّار أيّ نظر إليها، وعشا عن الشيء أي لم يره، كما أنّ اسميْ الإشارة (ذاك وذلك) ليسا سواء، لأن ذاك يشار به إلى البعيد، وذلك يشار به إلى القريب.

كما يبرز الخطّابي الفرق بين بلى ونعم قائلا: إنّ بلى جواب عن الاستفهام بحرف النّفي كقول القائل: ألم تفعل كذا؟ فيقول صاحبه: بلى، كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ (سورة الأعراف، الآية 172)[31]. وأمّا نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل كقوله سبحانه وتعالى:﴿هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾(سورة الأعراف، الآية 44)[32]. فهذه الأصول النّحويّة الرّاسخة اكتست بصبغة إعجازيّة فريدة في كلام الله تعالى، حيث جعلت أهل العربيّة وعلماءها يقفون مشدوهين أمام الإعجاز القرآني وهم يحاولون اقتناص مكنوناتها في كل حين.

وممّا يلفت نظر الباحث هو طرح الخطّابي للمسألة الزّنبوريّة المعروفة في النّحو العربيّ، وذكره لأئمّة النّحاة كسيبويه والكسائي، وللمصطلحات النّحويّة كالنّصب والرّفع[33]. وهذا إنّما يدلّ على عنايته بكل ما يخدم الإعجاز القرآني مهما تعدّدت مناهله بين لغة ونحو وحديث وتفسير...

3.3 النَّظم القرآنيّ:

يعرّف النّظم بأنّه ضمّ الشيء إلى الشّيء أو جمعه معه، وهو في الاصطلاح رصف الألفاظ والجمل مرتّبةَ المعاني، متناسبة الدّلالات وفق ما يقتضيه العقل، وذاعت في اللّغة العربية نظريّة (النَّظْمِ) حيث لازَم ذكرُها اسمَ الإمام عبد القاهر الجرجاني وأنّه من وضعها في دلائله، ونظرا لأهمّية هذه النّظريّة كثرت البحوث الحديثة حولها، ونُسبت للجاحظ، وابن النّظّام، والقاضي عبد الجبّار المعتزلي[34]، إلّا أنّ المتصفّح لرسالة بيان إعجاز القرآن، يلفي الخطّابي ذكر مصطلح (النَّظْمِ) ولا يتوافق ذكره لمصطلح النّظم مع الباحثين بعده فقط، بل يتوافق معهم في مفهومه للنّظم أيضا، فالنّظم عند الخطّابي متعلّق منذ البداية باللّفظ والمعنى، وحيثما يذكر اللّفظ والمعنى في رسالته يتبعهما بذكر النظم، وهذا يجعله أصلا دلاليّا أصيلا يقوم عليه الإعجاز القرآني، يقول:" فتفهّم الآن واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التّأليف مضمّنا أصحّ المعاني"[35].

فكلّ ما قدّمه معارضو القرآن الكريم ومنتقدوه من تهم باطلة بسوء النّظم والتّأليف من قبيل الحذف فيه والاختصار والتّكرار... جابهه الخطّابي بذكر مواطن الإعجاز فيه، وحسن نظمه الذي عُمّي عليهم لجهلهم به، ومن الأمثلة التي ذكرها: أنّ الإيجاز في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾ (سورة الرعد، الآية 31)[36] هو حذف وإيجاز في موضعه بل وإنّه من البلاغة، لأنّ في الكلام ما يدلّ عليه وهذا ما يعقله أهل الفهم ويدركه أولو الألباب.

وفي سورة الرحمن خاطب الله تعالى الثّقلين وعدّد نعمه عليهم ليشكروها ويحمدوه عليها، وحذّرهم من عقوباته ليرتدعوا عنها، فكان التّكرار في هذه السورة معجزا في جمعه بين التّرغيب والتّرهيب في آن واحد، وكذلك في سورة المرسلات جاء تجديد القول ليكون أبلغ وأوكد لإقامة الحجّة[37].

وحريّ بالذّكر إنّ من الباحثين المعاصرين من أنصف الخطّابي حقّه قائلا إنّ له قدم السّبق في اكتشاف معالم نظريّة النّظم بمصطلح (الاختيار والتّأليف) الذي تبنّاه الجرجاني فيما بعد والذي ذكره بوضوح تام (أحسن نظوم التّأليف) وعبقريّة الخطّابي الفذّة جعلت الأفكار التي أوردها في رسالته تعبّر عن سبق إبداعي مبكّر يؤكّد المقاربة بين مصطلحات النّقد الحداثيّة الغربيّة وبين مصطلحات نظريّة النّظم الخطّابيّة التي انتقلت بدورها من دائرة الخطّابي البلاغيّة الإبداعيّة إلى دوائر من جاؤوا بعده كالجرجاني والقرطاجني وابن الأثير وغيرهم، وجميعهم نهلوا من معين الخطّابي، وداروا في فلك معالم نظريّته وراح كثير منهم يبني على ذلك مصطلحاته البلاغيّة في إطار نظريّة النّظم، فالعبقريّة الإبداعيّة للخطّابي واكتشافه للنّظم (الاختيار، التأليف، علاقات الجوار، علاقات الاختيار بانتقاء الكلمات مع مراعاة الفروق اللّغويّة، اللّفظ والمعنى) بدقّة علميّة كبيرة استغرق العقلُ الغربي الذي أبهرتْنا إنجازاته الحداثيّة ما يقارب اثني عشر قرنا لينتج هذه الصّيغة التي أدرنا لها ظهورنا بدلا من تطويرها[38].

4. خاتمة:

وخلاصة القول إنّ موضوع الإعجاز القرآني يتفرّد عن سائر الموضوعات بسمات خاصّة، كيف لا وهو متّصل بأقدس كتاب وأسمى كلام ألا وهو القرآن الكريم الذي مازالت تثبت معجزاته الخالدة يوما بعد يوم، ويخسأ معارضوه إلى يوم النّاس هذا، لأنّ الله تعالى خصّ كتابه العزيز بصفات خالدة لامتناهية. ويمكننا أن نجمل النّتائج المتوصّل إليها فيما يلي:

_ ترتبط الدّلالة بالإعجاز القرآني ارتباطا وثيقا، فرغم أنّ رسالة الخطّابي في بيان إعجاز القرآن إلّا أنّنا نلفيها تحوي مواضيع في علم الدّلالة كعلاقة اللّفظ والمعنى.

_ يرى الخطّابي بأنّ العلاقة بين اللّفظ والمعنى والنّظم علاقة متينة وتكاملية.

_ عاب الخطّابي على معظم القائلين بالإعجاز البلاغي للقرآن اكتفاءهم بالتقليد وغلبة الظّنّ بدل البحث في أسبابه وعلله.

_ يقوم الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم على أصول ثابتة ينتج عن عدم توخّيها إمّا فساد الكلام، وإمّا ذهاب الرّونق.

_ لعلّ أهمّ الأصول الدّلاليّة التي يؤدّي عدم مراعاتها إلى فساد الكلام ودلالاته هي: الفروق الدّلاليّة، والفروق النّحويّة، والنّظم القرآنيّ.

_ أولى الخطّابي في رسالته عناية فائقة للفروق الدّلالية ومدى ارتباطها بالإعجاز القرآني، وكذلك فعل بالنّسبة إلى الفروق النّحويّة.

_ إنّ النّظرة الإبداعيّة، والعبقريّة العلميّة التي تميّز بها الخطّابي جعلته يكتشف معالم نظريّة النّظم، بل ويجاوز عصره بفكره العلمي المتّقد بقرون عديدة.

إنّ تناولنا لأهمّ أصول الإعجاز الدّلاليّة عند الخطّابي لا يعدم غيرها من أصول ذكرها في رسالته، كالبلاغيّة منها، والمُلح اللّغويّة الأخرى، إضافة إلى الإعجاز النّفسي للقرآن الكريم الذي ختم بذكره رسالة بيان إعجاز القرآن، وهذه المواضيع جديرة بالدّراسة في بحوث علميّة أخرى.

الهوامش

[1] ينظر دلدار غفور أمين، (2007م)، البحث الدّلالي في المعجمات الفقهيّة المتخصّصة، دار دجلة، الأردن، ص132.

[2] جلال الدّين السّيوطي، (دون سنة)، الإتقان في علوم القرآن، وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، ج2 ص105و 106.

[3] الرّمّاني والخطّابي والجرجاني، (دون سنة)، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ص 27.

[4] المرجع نفسه، ص 35 و36.

[5] المرجع نفسه، ص 36.

[6] المرجع نفسه، ص26.

[7] المرجع نفسه، ص 36.

[8] المرجع نفسه، ص 27.

[9] المرجع نفسه، ص 27.

[10] المرجع نفسه، ص 36.

[11] ينظر عبد المجيد الزروقي، (دون سنة)، أحكام الغلط دراسة في المنهجيّة التّشريعيّة، دار الكتب العلميّة، لبنان، ص 192.

[12] الرّمّاني والخطّابي والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 21.

[13] ينظر عبد الرحمن بن معاضة الشهري، (1432ه)، القول بالصرفة في إعجاز القرآن، دار ابن الجوزي، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص14.

[14] المرجع السّابق، ص24.

[15] سيّد قطب (1425ه 2004م)، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، مج6 ص3399.

[16] الرّماني والخطّابي والجرجاني، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 24 و25.

[17] المرجع نفسه، ص25.

[18] المرجع نفسه، ص 27.

[19] المرجع نفسه، ص 29.

[20] المرجع نفسه، ص 35.

[21] ينظر المرجع نفسه، ص 61 و65.

[22] ينظر محمد بن عبد الرّحمن بن صالح الشايع، (1414ه 1993م)، الفروق اللّغويّة وأثرها في تفسير القرآن الكريم، مكتبة العبيكان، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص82.

[23] المرجع السّابق، ص29.

[24] مصطفى صادق الرّافعي، (1973م)، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 225.

[25] محمد سعيد رمضان البوطي، (1970م)، روائع القرآن، دار الفارابي، دمشق، سوريا، ص 170 و171.

[26] سورة سبأ، الآية 13.

[27] ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 30-31.

[28] سورة ص، الآية 6.

[29] ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 43.

[30] ينظر المرجع نفسه، ص29.

[31] سورة الأعراف، الآية 172.

[32] سورة الأعراف، الآية 44.

[33] ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص29-31-32-33-34.

[34] ينظر جاسم محمد العبود، (2007م)، مصطلحات الدلالة العربية دراسة في ضوء علم اللغة الحديث، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 152.

[35] ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 27.

[36] سورة الرعد، الآية 31.

[37] ينظر المرجع السابق، ص 51-52-53-54.

[38] ينظر نبيل قصاب باشي، (2010م)، نظريّة النّظم عند الخطّابي في معايير النّقد الحديث والنّقد الحداثي، مجلّة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد 15، العدد 1، ص 275_ 294.